المشرق

ايار ١٩٣٠

نفوذ السيّد المسيح

في حياتنا الدينية*

بقلم الاب مرمرجي الدومنيكي

من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

الدين

صلة الانسان بالله صلة ضرورية ؛ وضرورة هـذا الاتصال ناشئة عن كون هذا ابن آدم خليقةً اي صنيعة ، وغيرُ خافٍ ان كل مصنوع منوطٌ حتماً بصانعه . ولما كانت كل خليقة تعيش وتأتي اعمالها ، أيّة كانت ، حسب طبيعتها ، طبقاً للمبدأ الفلسفي القائل : تجري الصنائع مجرى الطبائع ، اراد الله سبحانه ان يقوم تعلقنا به بموجب طبيعتنا . واذ كان الانسان مركباً من نفس وجسد ؛ وكانت نفسه متصفة بقوى اهمها العقل والارادة ، رتّب ، جلَّ جلاله ، ان يتوقف الدين ، اي اتصالنا به ،

* تقدم لنا في «مشرق» السنة الماضية مقالان في نفوذ السيد المسيح : الاول في حياتنا الادبية (ص ٤٨١) والثاني في حياتنا الاجتماعية (ص ٨٠١)

بنوع خاصّ، على فعلين وهما معرفته تعالى، وهذا مما يرجع الى العقل ؛ ومحبته عزّ وجل ، وهو ممّا ينوط بالارادة ، ومن ثمّ بالقلب . واذ كان الله الحقّ الاسمى ، والخيرَ الاعظم ، وجب على الانسان ان يعرفه بعقله ، أعني بقوته المعدّة لادراك الحقّ ؛ وان يميل او يتجه اليه بارادته ، اي بقوّته التوّاقة الى الخير . وهذه المعرفة ، وهذه المحبة ، المتكونة منهما حياة الدين الفطري ، قد رفعهما الله الى درجة لم يكن للانسان مندوحة للوصول اليها بما فطر عليه من القدرة الطبيعية ، وهي درجة معرفته ومحبته بنوع فائق الطبيعة. ومن ذلك نشأ الدين الثاوي الموحى به ، اي الذي انزله الله تدريجاً اولاً في بدء الخليقة ؛ ثم على يد موسى كليمه ومن تبعه من الانبياء الصادقين ، على تعاقب الدهور ؛ الى ان اكمله على يد ابنه الوحيد ، حسبما جاء به بولس الرسول في رسالته الى العبرانيين بقوله : ان الله كلّم آباءنا قديماً بالانبياء كلاماً متفرق الاجزاء ، مختلف الانواع . وكلمنا اخيراً في هذه الايام بابنه الوحيد الذي جعله وارثاً لكل الاشياء ، وبه انشأ الدهور.

فالدين ، طبيعياً كان ام منزّلاً ، قائم اذن في معرفة الله وما يتعلق به ، وقائم ايضاً في الميل الى الله ومحبته ، في الاوّل بنوع طبيعي ، وفي الثاني بنوع فائق الطبيعة. وهذه هي حياتنا الدينية . فاذا تقرر هذا ، لنبحث عن كيفية نفوذ السيد المسيح فيها ، اي في معرفتنا لله ، ثم في محبّتنا له ، تقدّست اسماؤه.

* * *

يعلّمنا ايماننا ان الله موجود ، وانه خالق الكائنات عموماً ، وخالقنا خصوصاً . فمن ثمّ كان من اللائق ، بل من المحتوم ، ان يحصل لنا معرفة بالله وما يعود اليه ، اي بالعالم ، وبنفسنا . وهذه المعرفة المثلّثة الموضوع قد زاد تعالى على درجتها الطبيعية درجة سامية ، فائقة الطبيعة . فبسرّ الثالوث الاقدس ، قد عرفنا حقيقة طبيعته سبحانه ، وهو امر كان ادراكنا عاجزاً غاية العجز عن تصوّر وجوده ؛ وبسرّ الخلق ، علمنا حقيقة العالم ؛ وبسرّ سقوط الانسان ، قد اطلعنا على حقيقة طبعنا . وهذا كله قد كمل بالوحي الذي اتانا مع الانجيل الّا ان هناك سرّاً حوى مفعول هذه الاسرار كلها ، ولخّص

لنا المعارف المنطوية عليها ، وهو سرّ التجسد الالهي ، الـذي بواسطته خاصةً كان للسيد المسيح الاثر البليغ في معرفتنا الدينية.

فبسرّ التجسد ، او سر الكلمة المتأنس ، قد علمنا علماً فائق الطبيعـة بطبيعة الله وحياته في ذاته . لان هذا السرّ يظهر لنا ان الكلمة الازلي هو شعاع جوهر الآب ، وضياء مجده ، الـذي نزل من السماء الى الارض لكي يلقننا معرفة الله التي بها نقدر ان نحصل على الحياة ، كما قال ، لاسمه السجود موجهاً الكلام الى ابيه : « قد جئتُ يا ابتاه لتكون لهم الحياة الابـدية ؛ وهذه الحياة الابدية ان يعرفوك انت الالــه الحقيقي وحدك ، والذي ارسلته يسوع المسيح.» فاحدى غـايات التجسد كانت ان يعرّفنا الله ويبيّن لنـا سرّ حياته الداخلية ، اي مثلما هو بذاته. وهو امر كان ، قبل ان يعلنه المسيح ، سرّاً غامضاً حتى على حكماء هذا الدهر . نعم ، كان للثالوث الاقدس بعض الاثر في تقاليد الامم ، وفي العهد القديم ؛ وكان له في الطبيعة عينهـا بعض الرموز . نعم من شأن الفلسفة والعلم اثبـات وجود الله واعماله في الخارج . اما حياته الداخلية فلم يكن في امكان انسان ، وان كان آيةً في العبقرية ، ان يطلعنا عليها . فالمسيح وحده اوحى بها الينا في انجيله . ودونك ، في ذا الشأن ، بعضاً من اقواله : « الا تؤمن ، يا فيلبس ، اني في الآب ، والآب فيَّ ؟ آمنوا اني في الآب وان الآب فيَّ . وانا اسأل الآب فيعطيكم معزيـاً آخر يقيم معكم الى الابد ، الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي. فهو يعلمكم كل شيء..» وقبل صعوده ، قال لرسله ذاكراً اقـانيم الثالوث : « اذهبوا الى العالم كله ، وعمّدوا الامم باسم الآب والابن والروح القدس . » هـذه هي شهادة الابن عن الثالوث ، اي عن نفسـه وعن أبيه وعن روحه القدوس . وبعد ان اوحى المسيح بسرّ الثالوث ، بشر الرسلُ باسم الثـالوث ؛ وباسم الثالوث علّموا البشر ؛ وباسم الثـالوث عمّدوا الامم ؛ وباسم الثـالوث كان الشهداء يرسمون علامة الثالوث على جباههم ، قبل نزولهم مضمار الاستشهاد. فانت ترى ان سرّ الثالوث هو أساس الدين المسيحي ، وان ملخصه هو في سرّ التجسد ، اي في المسيح الاله المتأنس.

فضلاً عن اسرار الله ، قد كشف لنا المسيح حقائق الكون ؛ لانه نور ساطع على المبروآت جمعاء ؛ كما قال هو عينه : « انا نور العالم » . وبالحق انه نور العالم ، ليس في دائرة العقليات والادبيات وحدها ، بل هو نور العالم حتى في ماديّاته . اذ ان يقيننا بالله يعرّفنا باصل العالم وخالقه . وبما ان المسيح هو كلمة الله ، فقد حوى في ذاته مثال المخلوقات باسرها ؛ وكما ان كلّ شيء فطر على صورته ، فقد كوّن ايضاً بفاعلية قدرته ، كما جاء في انجيل يوحنا : « كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان . » فمن الجهة الواحدة نراه صادراً من الآب صدوراً ازلياً . ومن الجهة الثانية نجده خالقاً للعالم في الزمان . فالكلمة ضياء الآب ومجده وصورة جوهره . والكلمة مثال الخلائق وباريها . وهذا هو السرّ الذي القى على العالم نوراً لامعاً ، لانه نور العالم . فالايمان بالوهية المسيح يحلّ عقدة اصل العالم وخلقه وتكوّنه ، ويبيّن لنا ان بين الله وبين خلائقه بوناً شاسعاً ، وان الكلمة المتجسد قطع هذا الشوط القصيّ ، فاضحى الصلة بين الله ومبروآته ؛ وباتحاده في شخصه الالهي الطبيعتين الالهية والانسانية ، اثبت تميّزهما الواحدة عن الاخرى.

ثم ان سرّ التجسد يظهر لنا ، بعد اصل العالم ، نظام الكائنات وتناسقها. لاننا نعلم ان هناك رجالاً نوابغ ، وفلاسفة جهابذة قد درسوا طبائع الكون وعمقوا في احواله ؟ فوجدوا في كلّ مكان ان الخلائق العليا ، اذا اتصلت بالسفلى ، رفعتها الى طبيعتها ، وجعلتها في مقامها . من ذلك النبات يجتذب اليه المعادن فيضمها ، لا بل يمزجها بحياته النباتية . والحيوان يستميل اليه النبات فيتمثله ، فيدخله في حياته الحيوانية . والانسان المرتفع على كل ما تقدم من المخلوقات يجذب اليه هذه الكائنات المعدنية والنباتية والحيوانية فيستغرقها كلها في طبيعته البشرية ، ويرقى بها الى مقامه الروحي الذي يتصل به هو عينه بالطبقات العقلية الرفيعة . فاذا كان هذا نظام الطبيعة ، اي نظام اجتذاب الخلائق العليا للخلائق السفلى ، واستيعاب طبيعتها ، افلا يمكن ان نتصور ارتقاعاً واتحاداً آخر ؟ اجل ان هذه الاتصالات قد جعلت الانسان كالصلة بين الخلائق الجسمانية التي هي ادنى منه ، وبين الخلائق الروحية التي هي اعلى منه.

لكن هناك اتحاداً لم يشاهد قط مثله في العالم ، وهو الاتحـاد الذي اجراه الله بعجيبة ، اي اتحاد الانسان به تعالى ، وذلك في شخص المسيح الاله الحقّ ، والانسان الحقّ ، وهذا الذي كلّل ذلك التناسق العجيب.

على ان المسيح الكلمة المتجسد يعلمنا ، فضلاً عن هذا ، علم الانسان ؛ اي انه يعرفنا بوحدة اصلنا وبطبيعتنا . لان من معتقدات الـدين المسيحي ان البشرية قد سقطت ؛ وان منقذهـا هو المسيح ابن الله . مما نتج عنه ان كل البشر الذين خلصوا بيسوع المسيح هم الذين هلكوا جميعهم بآدم . فالسقوط جرى بآدم الاول ، والقيام بآدم الثاني . وهاتان هما العقيـدتان المتجاذبتان والمتحدتان ؛ وكلتاهما تثبت وحدة الجنس البشري ، اي ان جميع هؤلاء الانام قد نزلوا من صلب ابيهم الوحيد ؛ مما جعلهم باسرهم اخوة بالطبيعة ، كما هم اخوة بنعمة المسيح . وبعد وحدة الاصل ، يلقّننا سرّ التجسد معرفة الطبيعـة البشرية . لان عقيدة اتحاد لاهوت ابن الله بناسوتنا اتحاداً اقنومياً يوحي الينا ان لنا ، فضلاً عن الجسد المادي ، نفساً روحانية ، حرّة ، خالدة ، لما هو معلوم من اصول ايماننا ان التجسد لم يتوقف على اتخـاذ الكلمة من طبيعتنا الجسدَ وحده ، بل انهُ قد اضحى انسـاناً كاملاً اي ذا جسدٍ ونفسٍ اتحدهما بلاهوته. مما يثبت معـه ان في الانسان نفساً حيةً روحانية ، لظهور النفس متميزة في المسيح عن جسده وقائمة بذاتها ؛ ونفساً حرةً ، لانه قبل باختياره المطلق الآلام والموت ؛ ونفساً خالدةً ، لان نفسه باقية في المجد معه.

ومما يفيد به سر التجسد هو انه يوضح لنا تاريخ البشرية . اذ بـدون المسيح كل التاريخ ، سابقه ، ومعاصره ، وتابعه ، لا معنى له . فبدونـه لا يُرى في الشعوب المتقدمة مجيئه سوى الاضطراب والتنازع والتطاحن والتفاني . ولاسيما في الشعب الاسرائيلي ؛ فانه ان لم يُعتبر بآبائه ، وانبيائه ، وشرائعه ، كتمهيد لمجيء المسيح ، فلا يكون وجوده وتاريخـه الّا زعبرة وشعوذة . وكذا القول في تاريخ تأسيس الدين المسيحي ونشأته . فبغير عقيدة التجسد ، اي بدون الايمان بالمسيح ابن الله ، لا يمكن شرحـه . اذ لا يمكن تعليل الانقلاب الذي احدثه . لان انخذال العـالم الوثني ، وانتصار المسيحية اما هو

حادث الهي اي من تأثير المسيح الاله ، والّا فهو حادث مستحيل الوجود. وهذا ايضاً شأن التأريخ الذي عقبه الى يومنا هذا ؛ فان ثبات النصرانية ، على الرغم من الاضطهادات ، والتقلبات ، والمرطقات ، ليس الّا من مفاعيل الوهية المسيح وقوته الفائقة الطبيعة المستمرة في الكنيسة حتى منتهى الدهور.

صفوة القول ، ان المسيح الاله هو كالفنار المنتصب على ساحل بحر هذا العالم متلألئاً ، ساطعاً بنوره على سبيل الحقائق الضرورية لنا معرفتها في ما يعود الى الله والعالم وطبيعتنا . فان كل شيء به ، ومعه ، وفيه. هذا نفوذه الاول.

. . .

على ان نفوذه الثاني ، اي تأثيره في الارادة التي بها نميل الى الله ونحبه ، ليس باقل فعلاً من تأثيره في عقلنا . لاننا اذا انعمنا النظر في حقائق ديننا القويم ، نرى فيه عجائب مذهلة ، نسبةً الى الاعمال التي اجراها الله لخير الانسان. لكننا نشاهد ، فوق كل تلك المدهشات ، عجيبة من اغرب العجائب تلمع بينها كالشمس النيرة ، الا وهي عجيبة المحبة. اننا اذا عمقنا في التأمل ، نجد الهاً واجب الوجود ، كائناً بذاته ، قديراً ، غنياً ، حكيماً ، لا بداية له ولا نهاية ؛ حياته وغايتها ، سعادته وكمالها ، في نفسه. الّا ان هذا الاله فيه خاصية جوهرية هي خيريته او جودته الفيّاضة التي دفعت حكمته وقدرته الى العمل . فمن فيض هذه الجودة الالهية قد برزت قدرته الى الخارج ، فابدعت العالم بما فيه من كائنات سماوية وارضية . وفي جملة هذه المبروآت صنع الله الانسان ، مميّزاً اياه عن بقيّة الخلائق . وكان ذلك عجيبةً من عجائب المحبة الالهية . خلقه من مادّة جامدة نفخ فيها روح الحياة ، الروح العاقلة ، المريدة ، الحرّة ؛ فجاء بذلك على صورة باريه ومثاله . فوضعه الله في جنة عدن ، وافاض عليه بركاته وآلاءه ، واقامه ملكاً مسلطاً على الطبيعة . وما سبب ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . سقط الانسان في الخطيئة ، رغماً مما زيّنه به من الكمالات ، وانعم عليه من الخيرات ؛ لكن الله ، عوضاً عن ان يهمله ، قصدَ ان ينشله من وهدة الهلاك . وما داعي ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . الملائكة اشرف من الانسان واسمى ، وكانوا قد سقطوا قبله ،

فهلكوا هلاكاً ابدياً . امـا الانسان ، ففضّله الله على الملائكة ، واختصه بعنايته ؛ فما علة ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهيـة . هذه الارواح السماوية لم تخطئ الّا خطيئة واحدة في ظرف من الظروف شقّ على طبيعتها غـاية الشق ، فحصلت على التعس الدائم ؛ وابنـاء البشر يأثمون ولا يزالون مكرّرين الاثم ، رافضين نعم الله ، محتقرين وصاياه ؛ ومع ذلك يحتم الباري ان ينقذهم ، ولماذا ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان في امكان الله ، وقد حتم بان يغفر للانسان جرمه ، ان يفعل ذلك بكلمة واحـدة تصدر من فمه القدوس ؛ لكنه قصد ان يخلّصه بتجسد كلمته الازلي لان التجسد اسمى درجة لاتحاد خليقته به ، واولى وسيلة لارضاء عدله ورحمته معاً . وهذا ايضاً عجيبة من عجائب المحبة الالهية . صار الكلمة جسداً وحلّ فينا ، اي انه ضمّ طبيعتنا الواهيـة الى طبيعته الالهية باقنومه السـامي ؛ فاصبح الالـه انسـاناً ، والانسـان الهاً ؛ وبذلك ارتفعت الافعال البشرية الى مقام الافعال الالهية ؛ بما قدر الانسـان معه ان يكفّر ، في شخص المسيح ، عن خطيئته . اجل ان هناك لسرّاً عميقاً ؛ لكنه عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان بوسع المسيح ان يكتفي بهذا العمل العظيم الذي لم يُرَ له مثيل ؛ لكنه لم يرضَ بان تواضع هذا التواضع ، بنزوله من علوّ بهائه ، حيث يحفّ به الملائكة ركّعاً سجّداً ، مسبّحين ، لانه رأى في قلب الانسـان ميـلاً شديداً الى الكبرياء ؛ فعزم على ابرائه منها . ولذا ، فهو الذي لم يحسب خلسـة ان يكون مساوياً للآب ، قد اخلى نفسـه وتواضع وصار في اشبه مثل الانسـان ؛ فولد في مغارة حقيرة ، من أم فقيرة ؛ وعاش حياة المسكنة ، وقضى ايامه الرسولية بالتعب والعناء ، معرضاً ذاته للمذلة والهوان ؛ وهذا كله عجيبة من عجائب المحبة الالهية . ولم تكن المحبة لتقف عند هذا الحد ، لانه هكذا احب الله العالم حتى انه سلم ابنه الوحيد ؛ والى اي شيء سلمه ؟ سلمه ليس الى الشغل والتعب ، او الذل والعار فقط ، بل اذ كانت الخطيئة تدفع الانسان الى طلب الراحة والرفاهية والتنعم والملذات ، قد قرر الآب الازلي ان يدفع ابنـه الى العذاب والآلام الفادحة ، لكي يفهم البشر ان لا كفارة عن الخطيئة الّا بتجرع غصص الالم

وان طريق الصليب هو طريق السماء . وهذه عجيبة من عجائب المحبة الالهية. كان كافياً للمسيح الاله ان يأتي فعلًا واحداً ، كذرف دمعة ، او سكب نقطة دم او ما اشبه ، للتكفير عن المآثم البشرية ، ولفداء عوالم جمة ؛ لكنه ، فضلًا عن الاتعاب ، فضلًا عن الاحزان والكروب ، فضلًا عن الاوجاع والآلام ، اراد ان يموت الميتة الشنيعة المريعة ، ميتة الصليب ؛ لكي يثبت لنا انه كما ان لكل شيء حدًا اقصى ، اقتضى ان تبلغ محبته للبشر اقصاها ؛ هو الذي اذ كان قد احب خاصته احبهم الى الغاية ؛ وهو القائل: «ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه !» . وهذا اعجب عجائب المحبة الالهية . على ان المسيح المغرم بحب البشر لم يشأ ان يضحى مرة واحدة على الصليب كفارة عن مآثمنا ، بل انه ، ارواء لغليل حبه لنا ، قد رسم سر المحبة الذي امكنه به ان يكون ذبيحة متواصلة على المذابح ، تصد عن الخلائق سيف غضب الله الساخط عليهم ، لتفاقم شرورهم ؛ وفيه ايضاً صار طعاماً وشراباً لتقوية نفوسنا ، وزوادة لنا في سفرنا الى الابدية ؛ فضلًا عن انه رضي ان يبقى سجيناً في كنائسنا ، ليقوم لدينا مقام الرفيق والخليل والمعزي والمشجع لنا في ضيقاتنا وتجاربنا واحزاننا . وهذا ليس عجيبة من عجائب المحبة فقط ، بل هو عجيبة العجائب ، واقصى حدها ، واوج كمالها ، في سبيل المحبة ، من قِبَله تعالى نحونا نحن البشر .

هذا ومعلوم ان المحبة تدعو المحبة . فاذ كان للسيد المسيح النفوذ البالغ في انشاء المحبة الالهية في الحياة الدينية ، فلم يكن الّا لينشئ في قلوب البشر محبة تقابل هذه المحبة الربانية . وبالحق ان المسيح القائل : « جئت لالقي ناراً على الارض ، وما اريد الّا اضطرامها » ، قد اضرم حريقاً في العالم ، هو حريق المحبة المتأجج في النفوس ، منذ تجسده وحياته الارضية ، وعلى مدى الدهور . فنجم عن ذلك تجاه عجائب المحبة الالهية ، عجائب المحبة الانسانية . اذ مقابل محبة المسيح ، وبنفوذ نعمته ، نرى عجائب المحبة في امه القدوسة ، التي عاشت على الارض متحدة القلب بابنها الالهي ؛ فكانت كشعلة ملتهبة بنار المحبة ، وشاركته في اتعابه وآلامه ؛ ولم تفارق هذا العالم الّا لشدة حبها

لحاشة فؤادها وفلذة كبدها. وكذا القول عن القديس يوسف ، مربّي المسيح؛ فانه بعيشه قرب اتون المحبة قد التهب هو ايضاً بنيرانها الالهية . وبنفوذ نعمة المسيح الفعالة ، قد تأثر رسله الاطهار الذين تركوا كل شيء وتبعوه . ولاسيما زعيمهم بطرس الذي اجهر بحبه للمسيح في فرص كثيرة ؛ ويوحنا الذي دعاه الانجيل: «التلميذ الحبيب» ، وقد اضحى رسول المحبة . وماذا تقول عن برلس الرسول الذي التهب بمحبة معلمه ، فكان يصرخ قائلاً : «من يفصلنا عن محبة المسيح ، اشدّة ام ضيق ، ام جوع ، ام عري ، ام خطر ، ام اضطهاد ، ام سيف ؟ اني واثق بانه لا موت ولا حياة ولا علوّ ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربنا.» وقد ختم جميع الرسل ايمانهم ومحبتهم باقتدائهم بمحبة معلمهم العظيمة ، اي انهم سفكوا دماءهم في سبيل دين يسوع الذي بشروا به. وعلى مثال الرسل قد سار الوف فالوف من المسيحيين ، رجالاً ونساء ، شيوخاً وعجائز ، شباناً وشابات ، صبياناً وصبيات ، فاغرموا بحب المسيح هذا الغرام البالغ بهم اقصى الحد ، اي انهم تكبدوا العار والهوان ، والتعب والمشقات ، والعذاب والآلام القاسية ، شهادةً للدين المسيحي ، فنالوا اكليل الظفر والسعادة الخالدة. وبمعزل عن هؤلاء ، هناك الوف وربوات من الابرار ، من مصاف النساك والمتوحدين ، والرهبان والراهبات ، والكهنة والاساقفة والاحبار العظام ، الذين احبوا المسيح حبّاً جمّاً ، وحققوا في نفوسهم فضائله السامية ، محاربين اميالهم المعوجة ، سائرين في طريق الكمال ، فاحصوا بين القديسين.

الخلاصة ، ان للمسيح الاثر البليغ ، والنفوذ التام في حياتنا الدينية . لانه عرّفنا الله معرفة كاملة بطريقة فائقة الطبيعة ، واطلعنا على حقيقة العالم ، وماهية طبيعتنا وحياتنا . وكان الوسيط بين الله ابيه وبيننا . وقد جاء فالقى في العالم نار المحبة ، فاشتعلت بها النفوس ، وتأججت لهباتها في القلوب ؛ فدفعت تلاميذه الى اتيان الاعمال العظيمة ، والمشاريع الباهرة ؛ مما حيّر الورى في كل عصر وجيل . فسبحانه هو القادر على كل شيء ، هو المنير العقول ؛ هو المضرم القلوب ؛ وله المجد والتسبيح والشكران في كل اوان.